التشكل الحجاجي في الخطاب السير ذاتي القديم

(الوصف أنموذجا)

دكتور

عائشة دالش العنزي *[1]

جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

الملخص

يجمع هذا البحث بين نظرية الحجاج والسرد العربي القديم المتمثل في خطاب السيرة الذاتية في التراث العربي ويهتم بأحد أساليب السرد الثلاثة، وأعني أسلوب الوصف؛ حيث يعنى بأنساق التشكل وملاءمتها لما يعرف حجاجيا بالوجهة الحجاجية، ومقاصد الخطاب وأعراف التواصل في تلك الحقبة الزمنية وصدوره ضمن مقامات خاصة أملت على الكتاب اختيار مناويل حجاجية بعينها والتجافي عن غيرها.

الكلمات المفتاحية:

الحجاج- السرد - السيرة ذاتية – الوصف- الوجهة حجاجية.

المقدمة

يهتم البحث بمحور هام في تشكل الجنس السردي، وتكون دلالاته السردية من جانب، ونسق تأثيره الحجاجي من جانب آخر. وقد اخترت نصوص الخطاب السير ذاتي القديم مادةً لتطبيق إجراءات الحجاج، ويعد المكون الوصفي ثالث أثافي الجنس السرد بعامة، وما تظهره دراسته من تقنيات حجاجية تعود إلى حجاجية الخطاب السردي العربي القديم، الذي يحتاج إلى الكثير من الجهد والدراسة في ضوء هذه النظرية الحديثة التي تعنى بالمنطق والفلسفة والبلاغة، وتهتم بقيم التواصل، وتفسير المَقول وفاقا للاستعمال اللغوي ومقتضيات المقام، وتذهب إلى البحث عن مضمرات الخطاب واستلزاماته الحوارية، بما يلاءم مقصدية صاحبه ووجهة خطابه، وقد تتوسل بحقول معرفية بعيدة عن الأدب لكنها تخدمه في الوقت ذاته كعلم النفس المعرفي. وهذا كله يظهر تفسيرا جديدا للخطاب السردي والسير ذاتي بخاصة ويكشف جماليات جديدة للنصوص التراثية لم تظهرها المناهج النقدية التقليدية.

واختيار مدونة السيرة الذاتية في الأدب القديم يضيف أهمية أخرى للبحث، وهي الاهتمام بجنس أدبي لم يلق اهتماما من قبل الدارسين، بل لم يلق اعترافا به من قبل بعض المنظرين، ومن اعترف به عده جنسا أدبيا غير نبيل. وهذا الاختيار يظهر وجهة نظر الباحثة بالاعتراف بوجوده في أدبنا القديم – ولو اختلفت أشكال كتابته عن أشكال كتابته في الأدب المعاصر– أولا، ثم الاعتراف بقيمته وما ينطوي عليه من جماليات.

وينقسم البحث إلى ثلاثة مطالب:،١- قيمة الوصف في الخطاب السردي، ٢-وصف الذات ويتفرع إلى محورين أ- الفخر الذاتي بين الإضمار والتصريح، ب-وصف الذات في المقامات المختلفة.

٣- الموصوفات الأخرى ويتفرع إلى ثلاثة محاور: أ- وصف الإنسان، ب- الصيد وشمولية الوصف، ج- وصف الحيوان والمكان في كتاب الاعتبار لابن منقذ.

وبعد هذه المحاور أختم بخاتمة تليها قائمة المصادر والمراجع.

١- قيمة الوصف في الخطاب السردي:

لم ينل الوصف في البداية ما ناله الحوار والسرد من عناية واهتمام، ولم أجد – حسب التقصي والبحث – من أهتم بتتبع انتقال الوصف من الهامش إلى المتن وأجرى مسحا تاريخيا لهذه الظاهرة السردية مثل فيليب هامون الذي يعيد سبب تأخره عن الحوار والسرد إلى قول بالي" من العبارات ما ينعت بالمثيرة دون أن نكون قادرين على تعريف "المثير" بدقة. هذه العبارات تستعصي على التحليل. وكثيرا ما نسميها " وصفية "... لا ندري ماذا نقوله في شأنها... ولا نهتدي إلى تعريف ممكن لها " [(١)]. يظهر من النص السابق الذي نقله هامون عن بالي أن ضبابية الوصف وعدم القدرة على تحديد حدوده مقارنة بالحوار والوصف.

وقد أجرى هامون مسحا تاريخيا موجزا؛ إذ يرى بداءة أنه يندرج –من العصور القديمة حتى الوسطى – في مقام مدحي يقتضي وصفا منظما لأشخاص أو أماكن، أو لفترات زمنية أو لمعالم أو أشياء مميزة اجتماعيا،

(١) في الوصفي، فيليب هامون ص:٢١.

ورجّح -أيضا – أن يكون في أسسه الأولى ذا صلة حميمة بالمؤسسات؛ لارتباطه بمدح القائمين عليها وشكرهم، وهذا جعله ينظر إلى الوصف بأنه نتيجة امتنان أو شكر نعم وفضل، ويرى أن للقصيدة المدحية والغزلية أثرها في قولبة عدد من الأبنية الوصفية، وهذا – من وجهة نظره – لا يصنع للوصف شكلا واضحا أو وظيفة ثابتة أو يحصره في مركز قار داخل الخطاب، ثم يذكر– هامون – أنه اتخذ في القرن السادس عشر معنى آخر يختص بوصف المدن للمهندسين والسيّاح ورجال الأعمال المتنقلين وللعسكرين، وهنا يجعله مرادفا للدليل أو المرشد، ثم ينتقل مفهومه إلى تعليق هامشي على لوحة فنية معماريّة أو صورة مجازية.

أما في العصر الوسيط أو عصر النهضة فالوصف ينهض – كما ذكر – بدور غزلي مهمته وصف محاسن المرأة، أو السخرية من فئة ما كالفلاحين، وهذا ظهر في كتابات: كرتيان دي تروا، ويرى – هامون – أن هذه المفاهيم أو الوظائف التي ارتبطت بالوصف أسهمت وبشدة في تهميشه وجعله وسيلة لدس نصوص مختلفة داخل النص الأصلي، وهذا يؤدي إلى تضخيمه وكسر صلابته، وأختم عرضه بما ذكره عن موقف المنظرين الكلاسيكيين الذين لم يروا في الوصف غير خطر يهدد النص وتماسكه وتناسقه، ووجاهة هذا الرأي المبني على استقراء وتتبع لوظائف الوصف لا تنفي إهمالهم لأغراض أخرى حققت– مستعينة به – قيمتها، وأهمها الهجاء ووصف الحروب والطبيعة، وغيرها.

وانتهت هذه الدراسة أو المسح التاريخي للوصف بوصفه ظاهرة أو أسلوباً أدبياً من هامون برصد التحول في آراء المنظرين من التهميش والإهمال ووسم الخطاب الحاوي له بالضعف إلى الاعتراف بقيمته واستثماره

للإمتاع والإقناع، وكان ذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، يقول نقلا عن فرانسيس واي:" إن أغلب الصور أوصاف مقنعة... فالذي لا يحسن الوصف لا يحسن الكتابة "، ورأى – هامون – أن أهم أسباب الالتفات إليه والإقرار بشرعية وجوده في النص الحدّ من ابتذال الوظيفة المرجعية ومن صبغتها المادية ، وفي هذا الرأي ما يثير حفيظة هذه المقاربة التي اتخذت من المرجعي الذاتي ميدانا لاشتغالها، والوصف هو جزء لا يتجزأ من واقعيتها، فكيف يكون مانعا لما هو جزء من منظومته – السرد المرجعي –، بل أحد مكوناته الثلاثة الرئيسة؟! ويضاف إلى هذا التساؤل تساؤلٌ آخر يخص العمل التخييلي، ومفاده: إذا كان الوصف – في رأي أحد الباحثين[1] – يعدّ بعدا حجاجيا لذلك العمل؛ لإيهامه بمطابقته للواقع، فكيف يكون – حسب هامون – كسرا لسيطرة الواقع؟ هل يقصد بالواقعي ما ينافي المجاز وحسب؟ وفي المقابل هل الإيهام بالواقعية ذو البعد الحجاجي في الأعمال التخييلية هو ما كان وصفا ماديا بحتا، يطابق – لولا الميثاق [2]– بين العالم الممكن والعالم الواقعي؟

وأرى أن الجواب أو الجمع بين الرأيين يقوم على مفهوم الضد، وبعبارة أخرى التشويق في الواقعي يحتاج – غالبا – إلى التخييل، والإيهام بالواقعية يحتاج إليه العمل التخييلي؛ ليكتمل لهما التأثير، وهذا يجعل جزءا من تأثير الوصف يوافق هذا المفهوم، ويبقى الجزء الآخر مرتبطا بالسياق الخاص لكل جنس، بل لكل خطاب من الجنس ذاته.

---

(١) د. عادل الغامدي في: الحجاج وقصص الامثال ص: ٣٠٨.

(٢) من المعلوم أن لكل لجنس أدبي ميثاق قرائي خاص به.

وأول ما ينظر إليه من مكونات السياق هو أشكال الوصف وهُوية الموصفات التي تنحّى من أجلها السرد ومنحها في الخطاب موضعا خاصا، وفي هذا الموضع تتغير مسميات أقطاب التلفظ ووظائفهم فـ: " يحول الراوي من وظيفة السارد إلى وظيفة الواصف، ويحول المتلقي من مروي له إلى موصوف له وبين الوظيفتين فارق في الاستعداد والتقبل "(١)، وهذا التغير يجعل الخطاب ينتقل من سياق له مقتضياته إلى سياق آخر بمقتضيات أخرى، وحريٌّ بهذا الانتقال أن يصنع أثره في نفس المتلقي، ويبدأ هذا التأثير بـ: هزة إيجابية أو سلبية تحدث للمتلقي نتيجة هذا الانتقال الذي قد يُقبل عليه وقد يغيظه ويكرهه على الانتظار والتشوق، فيتعجل نهايته حتى يواصل ما كان فيه – قبل ورود الوصف – من متابعة لأعمال المغامرة وأطوارها (٢)، وهذا العنصر التشويقي يدعم ما ذهب إليه هامون فيليب بأن الوصف: ممارسة نصية منمّطة موجهة لغاية (٣)، ومهما تكن تلك الغاية، فمن الطبعي أن يكون التأثير هو جزء منها أو أول مقدماتها الاستلزامية، بل إن وجوده في السرد وانصهاره معه لتكوين بنية واحدة تتحكم في نوازع المتلقي انتظارا وتشويقا؛ هو – بلا شك – نسق حجاجي اتخذ التأثير العاطفي أولى مقدماته.

وعلى هذا فكل نص يجمع إلى السرد وصفا ويحقق تنوعا سيرفع بدءا من قيمته التأثيرية، وهذا الحكم العام يشمل نصوص مدونتنا، التي تقتضي أجناسيتها أن تحتفي بالجانب الذاتي – ذات السارد – وتعطيه حيزا مغايرا، وهذا الاحتفاء يوجّه الدراسة إلى تقصي التشكلات الظاهرة والمضمرة لهذا الجانب.

---

(١) الحجاج في قصص الأمثال ص: ٣٠٦.

(٢) ينظر: علم السرد ص: ٢٩٦.

(٣) ينظر: في الوصفي ص: ٢٧.

١- وصف الذات:

أ- الفخر الذاتي بين الإضمار والتصريح:

لن يكون الاهتمام هاهنا منصرفا إلى وصف الذات المباشر لا غير، بل سيشمل ما يتركه الوصف بعامة من أبعاد قيمية تعلو بالذات وترفع شأنها بوصفها جزءاً من الفخر المبطن، فكل وصف من شأنه أن يشير إلى قيمة الذات، وإن لم يظهر كذلك هو حجاج للذات بما يلائم سياقات النصوص، ومن هذا ما ذكره البغدادي في وصف مجلس صلاح الدين [(١)] فالاطلاع السريع على هذه الوحدة الوصفية تظهر قيمة هذا المجلس وتظهر قيمة صلاح الدين، فهل أراد البغدادي أن يوصل إلى المتلقي وصف هذا المجلس وحسب؟ لا أظن هذا؛ لأن الكثير من أوعية التراجم والتاريخ قادرة أن تصف هذا المجلس وبآليات أقدر من آليات وصف البغدادي، الذي أراد أن يصف ذاته مجالسا لهذا الرمز الإسلامي، وهذا بعينه يرفع من قيمته، ولا سيما أن كلَّ ما في سيرته يظهر تعالي الذات، حد الغرور وانتقاص الآخرين؛ ولهذا استغل البغدادي كل عناصر الخطاب بما فيها الوصف؛ ليظهر هذا التعالي بوصفه جزءاً رئيساً من وجهته الحجاجية ومقصدية خطابه، وابتدأ بقوله:" **ورأيت ملكا عظيما يملأ العين روعة والقلوب محبة**"[(٢)] يسمى الفعل اللغوي " رأيت " في هذا المقطع: معلن الوصف، وهو- كما يراه نجيب العمامي من الوضعيات الممهدة للوصف والمبررة له في الآن ذاته[(٣)]، ويراه فيليب هامون فاصلا أو

---

(١) ينظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص: ٦٨٨.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) ينظر: الوصف في النص السردي بين النظرية والإجراء، محمد نجيب العمامي ص: ٦٤.

حدًّا أسلوبيا[١]، وهذا الفاصل بين السرد والوصف يتشكل في هذا الشاهد بوصفه جزءاً من مكونات الميثاق السير ذاتي[٢]، وهذا يعطي للوصف وقعا تأثيريا؛ لأنه ابتدأ بإحدى دلالات هذا الميثاق، ولم يكتف – وهو يغادر الأسلوب السردي – بالموجه القرائي العام، ولو اكتفى به لكفاه، ولكنه أراد تجديد الميثاق القائم في جانبه الإضماري على فعل الوعد، [٣]ومن شأن هذا الصنيع أن يرفع قيمة التواصل بينه والمتلقي ويشعر الأخير بحضوره الدائم عند المؤلف، وبخاصة عندما ينتقل من أسلوب إلى أسلوب، ولا يقف التأثير عند هذا، بل إن له بعدا حجاجيا تشويقيا يبدأ من الارتحال من مصر إلى القدس؛ إذ كانت غايته مقابلة صلاح الدين؛ ولذا ابتدأ مباشرة بوصف هذا الرجل، فلم يهتم بإعطاء مقدمات عن مدينة القدس ذاتها، ولم يتطرق لأي واقعة في طريقه إليها أو عند دخولها؛ لأن الألفة بينه وبين متلقيه قد وصلت ذروتها فاستشعر أن أفضل مقدمات هذا المقطع يجب أن تكون واقعة بصرية – رأيت – يتلوها وصفٌ انتشائي[٤] رآه الأنسب لهذا المقام ؛ لأن التفصيل قد يخمد جذوة الانبهار والانتظار، يقول:" **فرأيت ملكا عظيما يملأ العين روعة، والقلوب محبة، قريبا بعيدا، سهلا محببا** "، لقد جمع في هذا المثال بين الفخر الذاتي وإيقاع نشوة الوصف في روع المتلقي المشدود إلى هذا المقطع الوصفي المنتظر بلهفة: ماذا سيقول عن هذا الرمز؟ ولذلك اهتم بالجانبين الجسدي والمعنوي، وبنى وصفه – أيضا – على التقابل التكاملي؛

---

(١) ينظر: في الوصفي ص: ٣٧٥.

(٢) للمزيد ينظر: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ، فيليب لوجون.

(٣) الميثاق السيرذاتي، يقوم على الوعد، ومضمنه: أعدك بأن أقص حياتي، وأكون صادقا فيما أسرد.

(٤) صفات الانتشاء التأليفية أوصاف من قبيل: رائع، عجيب، خارق للعادة. وأيضا: لا يوصف، لا يعد، لا يحصى. ينظر: الوصف في النص السردي ص: ٦٨هـ (٢).

فبين مكون الخفاء والظهور، ومكون القرب والبعد فضاء متكامل مبني على الضدية، ولهذا النوع بلاغته وقدرته الأسلوبية في التأثير والشمول.

ولهذا الوصف بعد حجاجي آخر يقوم على ما يسمى في النظام الوصفي بـ مجموعة مسانيد [(١)] – تتابع الصفات –، وهذا يلائم المقامين: مقام المدح الظاهر، ومقام الفخر الذاتي المضمر، وأختزلُ ملاءمته للأخير بهذا الملفوظ: مثلما تمكنت من رؤيته بعد السماع فعلاً استطعت بعد رؤيته وصفه بالقول!

ومثله في سيرته وصف أحد شيوخه:" **فأخذني بكلتي (كذا) يديه وجعل يعلمني من أول النهار إلى آخره بوجوه كثيرة من التلطف، فكنت أحضر حلقته بمسجد الظفرية، ويجعل جميع الشروح لي ويخاطبني بها**"[(٢)]، يضم هذا الشاهد أوصافا متعددة للآخر – الشيخ – تجمع كلها على فراسته ومعرفته بالفروق بين طلابه؛ إذ أراد أن يوجه المتلقي لاستخلاص هذه النتيجة المضمرة: لقد عرف شيخي نجابتي وبوادر النبوغ التي فقت بها بقية طلابه.

وليس المؤيد عنه ببعيد فقد وصف المؤيد السلطان أبا كاليجار بـ: المتين في عقله[(٣)]، على الرغم ممّا قاساه منه من ظلم وطرد – كما ذكر –، وهذا الوصف لم يكن من باب العدل، وذكر محاسن العدو، وإن كان في الظاهر يشير إلى ذلك، بل هو قاعدة مؤسسة لمعنى– لاحق – أراد التمهيد له وإيصاله عبر مضمرات الخطاب جاعلا من هذا الوصف مقدمته الأولى، وعليها تقوم بقية المقدمات الأخرى التي توصله إلى النتيجة المتوافقة مع

---

(١) ينظر: في الوصفي (م. س): ٢٥٦.

(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (م. س): ٦٨٤.

(٣) ينظر: سيرة المؤيد ص: ٤.

وجهة خطابه، وإن كانت في موضع بعيد – نصيا- عن موضع هذا الوصف، يقول " كان الأستاذ الذي أنشأه مغرقا في بغض أهل البيت " [(١)]، ثم "وكان هذا السلطان حدثا في سنه، وإن كان متينا في عقله "[(٢)]، وتنظيم حجته الوصفية كالتالي:

م(١): أبو كاليجار مبغض للتشيع مذكورة

م(ض): الأستاذ الذي تولى تنشئته وتعليمه مبغض للتشيع مذكورة

م(٢): هو متين في عقله مذكورة

م(٣): يتشيع بعد دعوة المؤيد له مذكورة

ن: المؤيد رجل جدل، ومحاجٌ مقنع مضمرة

وهذا يدل على أن الخطاب في المقاربة الحجاجية فعلٌ مركب تتظافر أفعاله البسيطة من مواقع نصية مختلفة؛ لتكوّن معنى ما تقتضيه وجهة الخطاب.

ويدخل في ذلك وصف الأسلحة؛ لأن السلاح يرتبط بحامله ووصفه يضيف إلى الفارس، أو لنقل: جزء لا ينفك – على المشهور- عن وصفه، وإذا كان كذلك؛ فهو وسيلة ناجعة لوصف الذات وصفا يحتشم فيه عن التبجح بمدحها مستعينا بالاستدلال الذي يفترض أن يقوم به متلقي الخطاب بعامة ومن يتصدى لتأويله بخاصة، ويظهر هذا الوصف عند ابن منقذ عندما يصف أسلحته – وهذا منتشر في سيرته-، ويقول في موضع آخر عن حصانه:" وتحتي فرس مثل الطي " [(٣)]، ولا مشاحة في أن الوصف في هذا

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) الاعتبار ص: ١٠٢.

الشاهد وصفٌ للفرس، ولكنه في الوقت ذاته هو جزء ظاهر من الخطاب يدخل في تركيب أعمق تغذيه الأنثربولوجيا – علم الأنسنة – بمفهوم مضمر يتفاعل معه مكونا حقيقة ينطلق منها، وهي: الفرس من الفارس ، وتمثيل هذا بالمفهوم المنطقي الاستدلالي:

وتحتي فرس مثل الطير، يماثله: فرسي أصيل =م١

والفرس من فارسها = م٢،

إذن: أنا فارس أصيل.

وبنية هذا المثال قريبة من بنية المثال المتداول في كتب الحجاج: سقراط عالم.

ومن الوصف الذاتي المبطن ما يرجع إلى الهوية الفكرية ولا سيما ما يتصل بوصف الشيخ الذي يرفد قيمة التلميذ، ومن ذلك وصف السخاوي – في معرض الحديث عن تنقلاته في اكتساب العلم – شيخه وزوج أخته، يقول:" **ثم نقله لزوج أخته الفقيه الصالح البدر حسين بن أحمد... مؤدبه زوج عمته الفقيه الشمس محمد بن عمر الطباخ أبوه أحد قراء السبع هو (كذا)** " [(١)]، يظهر جليا أن هذا الوصف يعود إلى الكاتب السير ذاتي من جانبين – العلمي والاجتماعي – ويضاعف لديه الفخر الذاتي فهذا الرجل الصالح هو معلمه وصهره في الوقت ذاته، ولأن العلماء أبعد أصحاب المدونة عن التصريح بالفخر بالذات؛ فيحاولون للوصول إلى هذا بالتوسل بالآخرين، وهذا ما فعله السخاوي في المثال السابق.

---

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ص: ٨/ ٣.

ويدخل في هذا الفخر وصف ابن خلدون لطلبة العلم في القاهرة، يقول: "**وانثال عليّ طلبة العلم بها، يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة**" [(١)]، لا أدعي أن في هذا الملفوظ إضمار مدح الذات أو الفخر بها، فهو ظاهر، وقوله: "مع قلة البضاعة " نوع من التواضع يخفف من فخره العلمي، ولكنه استخدم وصف الآخر وسيلة لوصف الذات المقصود في حين يكون وصف الذات المباشر ليس مقصودا، وهذا يجعل الوصف يتمتع بحرية " داخل خطاب القصة تجعله جديرا بإنتاج الدلالة وتوجيهها "[(٢)] .

ومن الملفوظات التي تخفي وصفا مبنيا على الفخر بالذات وإعلاء شأنها، دون أن يكون في الملفوظ وصفا ظاهرا ما حكاه أسامة في سيرته:" **فاجتزت في طريقي بالكهف والرقيم فنزلت فيه وصليت بالمسجد، ولم أدخل في ذلك المضيق الذي فيه، فجاء أمير من الأتراك الذين كانوا معي، يقال له: برشك يريد الدخول في ذلك الشق، فقلت: أي شيء تفعل هنا؟! صلّ برا. قال: لا إله إلا الله أنا ابن حرام إذن حتى لا أدخل الشق. قلت: أي شيء تقول؟! قال: هذا الموضع لا يدخل فيه ولد زنى، ما يستطيع الدخول، فأوجب قوله أن قمت فدخلت في ذلك الموضع وصليت، وأنا – الله يعلم– ما أصدق ما قاله... ومعنا في الجند براق الزبيدي، معه عبدٌ له أسود دين كثير الصلاة أدق ما يكون من الرجال وأذبّهم، فجاء إلى ذلك الموضع وحرص كل الحرص أن يدخل، فما قدر يدخل فبكى المسكين وتوجع وتحسر** "[(٣)]، الصفة التي أراد أن يصف بها نفسه هاهنا: أنا ابن عفيفة، والآخر: مسكين ! يظهر التقابل

(١) التعريف بابن خلدون ص: ٢٦٦.

(٢) الحجاج في قصص الأمثال ص: ٣٠٨.

(٣) الاعتبار ص: ٦٩.

المبني على حجة المقارنة، وأراد أيضا هذا المضمن: لا تحمل وازرة وزر أخرى، فهذا المولى كثير التدين والصلاة.

إن هذا المثال يحمل وصفين للذات، وكلاهما مضمر لا ظهور لهما على سطح النص: الأول: نقاء النسب، والثاني: نقاء الفكر والفهم.

وقد يكون وصف الآخر هو نتيجة مقدمتها وصف الذات، فيذكر النتيجة بدءا ويتبعها بالمقدمات كحيلة خطابية مبنية على السببية، وهذا ما فعله المؤيد؛ إذ وصف وجوه بعض الحاضرين بعد سماع كلامه، يقول: " **ونظرت إلى وجوه القائمين على رسم الخدمة من الأستاذين والخدم فرأيتها تتلألأ بما سمعوا من كلامي وشقي فيه عن صحيح المعنى، وسوي المقصد والمغزى. ورأيت فريقا يبكون، وآخرين يتباشرون ويضحكون، وصرت إلى المخيم، وجمع لي من المال والخلع والخيول المسومة** "[1] في هذا المثال استخدم الكاتب أكثر من معلن وصفي – رأيت ونظرت – على الرغم من اختزال الوصف في كلمة واحدة – تتلألأ–، وفي هذا تخييب لمأمول المتلقي، الذي كان ينتظر أكثر ممّا جاد به من نعت، وأظن أن للمقام هاهنا أثره، فهؤلاء الذين نظر إلى وجوههم هم موالٍ وخدم في مجلس السلطان الفاطمي، ولا يملكون رد فعل يعبرون به عن إعجابهم غير هذا، فمراسم المجالس السلطانية تضبط ذلك، أما الآخرون الذين يبكون أو يضحكون فهم جلساء السلطان، والمبالغة الوصفية واضحة وبخاصة في البكاء، ومراده من هذا إظهار غيرتهم منه، أو: شدة الفرح التي أعطت آثارا عكسية، وهذا كله يدخل فيما يعرف تداوليا بالفعل التأثيري، وهو يهتم في خطابه بعامة بهذه الفئة،

(١) سيرة المؤيد في الدين ص: ١٠٠.

ويلح على انتشارهم حوله في كل مكان ينتقل إليه بوصفه ركيزة إقناعية تجلّي قيمته بين الفينة والأخرى.

ولم يكتف من سبق أو غيرهم بالجانب الضمني لإثبات مفاخرهم وصفا، بل بني جزءاً من هذا الوصف في الجانب الصريح، وإن كان لا يقاس من حيث المساحة بالجانب المضمر، وهذا لا يحتاج إلى تعليل، فالجانب الأعرافي أو الحس المشترك في ذلك الزمن، بل حتى يومنا الحاضر لا يستسيغ التصريح بإعلاء شأن الذات، ويعده أمرا بغيضا، ولا أظن أن هذا المفهوم يغيب عن كتاب المدونة، بل إنه علة ما سبق من إضمار أو إيهام بوصف الآخر.

وعلى هذا سيكون وصف الذات المباشر الذي لن ينفصل – غالبا – عن مقام المدح والفخر؛ آلية لها أبعادها ومبرراتها التي جعلتها خيارا لا يُندُّ عنه يفرضه المقام رغم مقت العرف التواصلي لها، وأجد أن أول تلك المبررات أن يكون الوصف من المشهور الذي يعرفه المتلقي من السياق الميتا لغوي، فلا يحتاج فيه إلى أن يجمع إلى المدح كذبا أو مبالغة، وهذا ينطبق على قول المؤيد واصفا ذاته بما هو معروف به تاريخيا، وحمله السياق على ذكره في حوار مع السلطان الفاطمي: "**وأنا شيخ هذه الدعوة ويدها ولسانها، ومن لا يماثلني فيها أحد**" [(١)]، ألزمه المقام بوصف ذاته أمام السلطان؛ لأنه يحتاج إلى أموال تعين جيشه على الدعوة للدولة الفاطمية وتوسيع نفوذها، مذكرا بأنه أحرص الناس على قيامها، وأنه الأمين على ما يدفع من أجل ذلك من الأموال والخيول، وذكره للفعل التأثيري من لدن السلطان يعدُّ احترازا يظهر من خلاله أن ما قاله عن نفسه لم يثر حفيظته، بل على العكس من ذلك أثار إعجابه ورضاه، ويفترض الفعل التأثيري ذاته من المتلقي الكوني، يقول:" **فكان**

---

(١) المرجع السابق ص: ٩٩.

الجواب على الفصلين الأولين بشاشة ظهرت في أسرة الوجه الكريم، وتبسما كشف عن در الثغر النظيم من دون إعمال اللسان"[1]، إن وصفه لحال السلطان بعد سماع كلامه هو استحضار لعرف يمج هذا النوع من إعلاء الذات؛ ولذلك استعان هنا بوصفه؛ ليعبر هذا المنزلق الذي استلزمه مقام التلفظ الحواري.

ب- وصف الذات في المقامات المختلفة:

عندما يكون وصف الذات بعيدا عن مقام المدح أو الفخر، فالتصريح به يكون كالتصريح بباقي الموصوفات، لا يحتاج إلى طرائق أو حيل وصفية تخفي ظهوره، وتحصره في الجانب الإضماري، وأشرت سابقا – في مبحث الحوار– إلى وصف المؤيد لنفسه؛ دفاعا عنها وردا لما أثير حوله من ادعاءات – والسياق يثبت أنها حقائق –، وتشكل هذا الوصف وفاق حجة المقارنة بينه والآخرين[2].

وكذلك فعل أسامة عندما وصف ذاته عندما بلغ الثمانين من عمره، وكان من أكثر المقاطع الوصفية شمولا، ويسمى هذا في الوصف: تحديد مظاهر الموصوف، ويقوم على إبراز خاصياته ، وتردد هذا المثال كثيرا، ولكن ذكره كاملا هاهنا يقتضيه التطبيق، يقول: "... **فلما توقلت ذروة التسعين، وأبلاني مر الأيام والسنين صرت كالجواد المعلاف لا الجواد المتلاف ولصقت من الضعف بالأرض ودخل من الكبر بعضي في بعضي حتى أنكرت نفسي وتحسرت على أمسي، وقلت في وصف حالي:**

لما بلغت من الحياة إلى مدى ... قد كنت أهواه تمنيت الردى
(...) ضعفت قواي وخانني الثقلان ... بصري وسمعي حين شارفت المدى
فإذا نهضت حسبت أني حاملا ... جبلا وأمشي إن مشيت مقيدا

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) المرجع السابق ص: ٨.

وأبيت في لين المهاد مسهدا قلقا كأني ما افترشت الجلمدا
وأدب في كفي العصا وعهدتها في الحرب تحمل أسمرا ومهندا"[1]

أظهرت أبعاد التأثير الوصفي هاهنا تفصيل العناصر واستقصاء مظاهر التحول، فالوصف لا ينهض على إبراز خاصيات الموصوف وحسب، بل على تحولاته وتحولات أجزائه أيضا، تبعا لسيرورة الزمن، وسنن الكون؛ إيغالا في التأثير، وتبع هذا الوصف وصف حركات أعضاء الموصوف وما اعتراها من الضعف بعد القوة، ويضيف معلن الوصف – فلما توقلت – إلى حجاجية الشاهد بعدا تشويقيا؛ فـ(لما) تحمل معنى (حين) وتحمل المتلقين على انتظار واقعة ما، تجعل أعجلهم يقول: هيه ماذا حدث؟ لأن فيه افتراض حوار بعيد تقتضيه غالب النصوص، وفي إثارة فضول المتلقي قيمة تأثيرية تواصلية يبنى عليها أفعال لغوية استفهامية.

وأختم دراسة هذا البعد الحجاجي بهذا المثال الشامل لجانبي الإنسان (الجسد والنفس)؛ إذ لم يقتصر الوصف هنا على المظهر الخارجي بل وصف الكاتب أيضا الحالة النفسية وتحولاتها، وأستطيع أن أقول: أنه أعطى هذا المقام الوعظي حقه من حيث براعة الوصف وتقصي الجزئيات، والاهتمام بالجانبين المادي والمعنوي.

وقد يتتبع الواصف خاصيات ما له علاقة شبه أو جوار بالموصوف[2]؛ كقول أسامة واصفا نفسه – الوصف ذاته–:

فصرت كالغادة المكسال مضجعها على الحشايا وراء السجف والكلل

(١) الاعتبار ص: ٢٥٨.

(٢) ينظر: الوصف بين النظرية والإجراء ص: ١٢٣.

شبه نفسه بالغادة ثم مضى يذكر صفاتها: مكسال، مضجعها على الحشايا وراء السجف والكلل، وهذا الوصف يظهر الوجع الذي يشعر به؛ لأن تشبيه الرجل العربي نفسه بالمرأة يظهر تدني ثقته بنفسه، وهذا يقيم تواصلا يجعل المروي له يقوم بالربط الاستدلالي ليصل إلى نتيجة الوصف.

وفي مقام آخر أبعد ما يكون عن إعلاء شأن الذات يصف المؤيد نفسه في أحد مجالس السلاطين عندما ارتج وأصابه العي:" **فلم تقع عيني عليه، إلا وقد أخذتني الروعة... واجتهدت عند وقوعي إلى الأرض ساجدا لولي السجود ومستحقه أن يشفعه لساني بشفاعة حسنة بنطقه، فوجدته بعجمة المهابة معقولا، وعن مزية الخطابة معزولا** "(١) ولعل في هذا الوصف إظهارا لمعاناته، فالوقائع أظهرت الغالب منها، وأظهرت المواقف الحوارية بعضها الآخر، هذا جانب من دلالة وصف ذاته، والجانب الآخر يظهر هيبة السلطان الفاطمي، وفي هيبته هيبة للدولة، بل هيبة للمذهب الشيعي بعامة؛ ولهذا لم يعترضه هذا العي أمام وزراء المذهب السني، بل كان بليغا جدلا حاضر الذهن سريع الجواب قوي الحجة، وفي حواره مع بهرام بن مافنة دليل على ذلك(٢)

ووصف عمارة اليمني ذاته في مقام آخر وبخاصة حاله – هيئته الخارجية –، يقول:" **فحملتُ إلى رجل منهم يقال له: العريف كثير مالا مثل اسمه كثيرا حتى أجارني ريث ما خرجت حاجا بل هاجا** "(٣)، ويصف شكله، وهو متخفٍ يمازح سيف الدين الحسين صهر الوزير الصالح، ويدعي أنه

---

(١) سيرة المؤيد ص: ٨٥.

(٢) ينظر: سيرة المؤيد ص: ٦.

(٣) النكت العصرية ص: ٣١.

رسول عمارة اليمني وليس هو، يقول:" **فلما وصلت إلى العدوية تركت العُشاري بها وركبت حمارا... واجتمعت به في خزانته من دار الوزارة عند المغرب وأنا ضارب لثاما ومخفف عمامتي، ومجرس صوتي، فقلت له: أنا رسول الرسول إليك، وجميع حاجته عندك...ثم قال لي: وما الذي يحسن هذا الرجل. قلت: هو فقيه وعنده طرف من الأدب، فقال: تعني شاعرا. قلت: نعم. قال: هذه نقيصة في حقه. ثم ودعته وركبت الحمار، وخرجت من القاهرة ليلا فبت (في) مصر**"[1]؛ لقد اقترب الوصف في هذا الشاهد من الرسم الكاريكاتوري وبخاصة ركوبه الحمار، وهذا يلائم مقام السخرية والتندر، وشملت الصورة تغيير الشكل والصوت، وحدد الزمن لدعم هذه الواقعة؛ لأن الملفوظ مرجعي ودعم صدقيته أمر مطلوب وبخاصة عندما يرى الكاتب أن مقوله قد يحاط بالشك أو التعجب، ولا سيما وهو المهتم بالحجاج المضاد واستشعار ما سيقوله المتلقي في سيرته كلها، وأجد أن أقصى ما في هذا المثال من تأثير – في رأيي– تستلزمه وجهة الحجاج في نصه؛ إظهار الألفة بينه والوزراء رغم اختلاف المذهب، ومعظم ما أظهره من ذلك كان في مقامات الجد، فحرص أن يُظهر جانبا من هذا التواصل في مقام المرح والسخرية، فرفد الوصف هذه الغاية وشكل بعدا حجاجيا يندرج في المنظومة الإجرائية العامة.

وقريب من هذا – اندراج الوصف في خدمة الوجهة الحجاجية للخطاب – وصف المؤيد لذاته في المواضع كلها يعضد الغاية العامة لنصه، وهي إثبات جهوده في سبيل قيام دولة الفاطميين في بغداد والشام.

---

(١) **المرجع السابق: ١٢١.**

٢- الموصوفات الأخرى:

على الرغم من قلة الوصف في مدونة السيرة الذاتية القديمة بعامة، إلا أن معظم موضوعات الوصف حاضرة، فلا نعدم – مع ندرتها – شيئا منها.

أ- وصف الإنسان:

لن يغيب عنا في أي موضع من مواضع الدراسة مرجعية هذه المدونة، وأن محورها الذات البشرية، وشبكة علاقاتها مع كل عناصر الكون حولها ضمن سياق زمني لم يُمنح فيه هذا الشكل التأليفي قيمة تساويه بغيره من الكتابات، بل عُدَّ حتى وقت قريب من الأجناس غير النبيلة، وهذا ما حمل المؤلفين على اتباع طرائق غير مباشرة يتقون بها خرق أعراف التواصل أو الاصطدام بالمفاهيم المشتركة عند الحديث عن الذات – وقد سبقت الإشارة إلى بعضها في السابق-.

وتلك الطرائق أو الاستراتيجية لن تنسحب على بقية الموصوفات الأخرى؛ لانتفاء الحرج في وصفها، وفي هذا النوع من الوصف تكون الذات الواصفة خادمة للموصوف والموصف له في الآن ذاته، مثلها مثل الفرد في تبعيته للجماعة، ويعدُّ وصف الإنسان أو الكائن الحي بعامة من " من الموضوعات المميزة في السرد، قد صنّفه منظرو الغرب في جنس وصفي مخصوص هو البورتريه، وعرّفه بعضهم بأنه: وصف معنوي ومادي لكائن حي واقعي أو خيالي، وقد يتصل بذلك وصف الشخصية في طباعها وأخلاقها"[(١)] وسأهتم هاهنا بثلاث مدونات اهتمت بوصف الإنسان أو الوصف

(١) قصص الامثال:٣١٣.

بعامة، وأدرس نسقية الوصف في كل منها؛ لأني لحظت أن لكل منها طريقة خاصة، وحجاجاً وصفياً يميزها عن غيرها.

إن وصف الإنسان وصفا مؤثرا لا يقوم على إبراز صورة الموصوف بأقصى ما يمكن من الدقة، ومطابقة الواقع، فهذا – حسب بروست – هو: نقل سطحي بدائي ظاهري لا يُعنى بالجوهر أو عالم الفكر، بل سيكون الاهتمام بإبراز ذات الناظر إلى الموصف، والمقصود بهذا: وصف ذات معينة في سياق معين بكل ما في هذه الذات من غموض أو قلق أو غرابة[1]، وهذا الوصف يتوافر في سيرة أسامة، ومن أشهر الموصوفين بهذا اللص المسلم (الزمركل)، يقول أسامة واصفا له مرة وناقلا عن غيره مرة أخرى: "**فلما وصلنا الشخوص التي رأيناها، والشمس على مغيبها، فإذا شيخ عليه مِعْرقة امرأة ومعه، فقال له حسام الدولة وكان – رحمه الله – رجلا جيدا كثير المزاح: يا شيخ، أي شيء تفعل هاهنا؟ قال: أنتظر الظلام وأسترزق الله تعالى من خيل هؤلاء الكفار، قال: يا شيخ تقطعهم بأسنانك تقطع عن خيلهم؟ قال: لا، بهذه السكين، وجذب سكينا من وسطه مشدودة بخيط، مثل شعلة النار، وهو بغير سراويل ! فتركناه وانصرفنا.**

وأصبحت من بكرة ركبت أنتظر ما يكون من الإفرنج، وإذا الشيخ جالس في طريقي على حجر، والدم على ساقه وقدمه قد جمد، قلت: أهنئك السلامة، أي شيء عملت؟ قال: أخذت منهم حصانا وترسا ورمحا، ولحقني راجل وأنا خارج من عسكرهم طعنني... وهو مستقل بالطعنة التي فيه كأنها

(١) ينظر: علم السرد ص: ٣٠١.

في سواه. وهذا الرجل يقال له: الزمركل من شياطين اللصوص"[(١)]، يكشف الوصف في هذا الشاهد غرابة هذا الرجل، واقترب ممّا يسمى بالتعيين؛ إذ لا يعلن عن موضوع الوصف – عنوانه – إلا في موضع متأخر من المقطع الوصفي، إذ يُجعل الوصف بحثا والموصوف لغزا[(٢)] وهذه الطريقة تناسب غرابة هذا الرجل في الشكل والمضمون، وتصنع نوعا من التشويق يرفع قيمة النص حجاجيا، على الرغم من تخييبه لأفق انتظار المتلقي؛ إذ يغلب الظن في تلك المقامات أن يكون من الإفرنج، وأن يتبعه نوعٌ من المغامرات المعهودة بين الطرفين، وهذا الخرق يحسب لتأثير الخطاب ورفع قيمته الحجاجية؛ إذ يبقى المتلقي مشدودا متأهبا ينتظر المفاجآت؛ ولهذه الغاية التأثيرية اختار أسامة في هذا الموضع "أن يتساوى في العلم مع المتلقي فلا يكشف إلا ما يبلغه السرد" [(٣)].

وأستطيع أن أقول – مجازا–: إن هذا المقطع من حيث الوصف ينقسم إلى: وصف إطار، ووصف مؤطر، يهتم الأول بالزمركل، فهو عنوان الوصف، بينما يهتم الثاني بوصف حسام الدولة في موضعين، والموضع الثاني ذو علاقة متينة بإظهار جوانب الموصوف الرئيس عبر حوار ساخر أظهر بقية صفات الموصوف، وأول هذه الصفات هو الجانب الفكري، فقوله:" **أنتظر الظلام وأسترزق الله من خيل هؤلاء الكفار**" يظهر أنه يرى أن ما يفعله لا يعد سرقة، بل هو نوع من الجهاد ! ومن المؤطرات – أيضا– وصف السكين

(١) **الاعتبار (م. س): ١٠٧.**

(٢) **ينظر: الوصف بين النظرية والإجراء ص:١١٨.**

(٣) **المرجع السابق ص: ١١٧.**

أيضا الذي انفتح على وصف جانب من جوانب الموصوف الرئيس – الزمركل – في الجانب الشكلي الذي ذكر بعضه قبل الحوار.

وابتدأ أسامة وصف الرجل بما يوضع على الرأس " معرقة امرأة"، وانتهى بتعري الرجل ممّا يستر العورة " وهو بغير سراويل "، وأراد إنتاج دلالة وعظية تتبع وجهة خطابه، مفادها: لا تغتر بظواهر الأشياء وهي الحكمة عامة؛ لأنه يخفي استحسانه بما يفعله الزمركل وإعجابه بما يفعل بالعدو، ويدل على هذا لقاؤه به في اليوم التالي، وما دار بينهما من حوار؛ ولذلك ذكره في مجلس الأمير بعد ذلك بزمن، وأظن أن لهذا السياق دورا في إثارة هذه العاطفة، فهو لص يقلق العدو ويتربص به ليلا، وهذا يحسب له ، ثم قوله: "**وكأنه مستقل بالطعنة التي فيه وكأنها في سواه** " وفي هذا إظهار جلده وشجاعته، ويكشف في النهاية عن اسم هذا اللص البطل "**وهذا الرجل يقال له: الزمركل من شياطين اللصوص** "، ولم يغب عن أسامة تنزيل الموصوف ضمن إطار زمني ومكاني – متغير – إكمالا لعناصر الوصف، أو منازله – حسب العمامي– [(١)].

ونأتي إلى الوصف الآخر – عن طريق النقل – أسند الوصف إلى نور الدين الذي تقاسم وصف الزّمركل مع أحد جنوده، واسمه سومان[(٢)]، وفي وصفه للرجل رائيا وناقلا، أظهر كفاءته الوصفية وقدرته على تسخير توالي الأفعال السردية والحوارات في إظهار جوانب هذه الشخصية في مستويات عدة.

---

(١) المرجع نفسه ص: ٦١.

(٢) الاعتبار ١٠٧.

إن هذا الرجل يذكرنا في جانب من وصفه واحتياله بأبطال المقامات – الإسكندري والسروجي.

ونجد قريبا من ذلك وصفه لامرأة يقال لها: بريكة، واستعماله لكلمة شيطانة في موضع مشابه لوصف الزمركل وهذا الاستعمال يثبت أنه وصفٌ إيجابي؛ يقول متحدثا عن هزيمة المسلمين أمام الإفرنج : " **كل ذلك وأمَة عجوز يقال لها: بريكة مملوكة لرجل كردي من أصحابنا، يقال له: علي بن محجوب؛ واقفة بين الخيل على شط النهر في يدها شربة تستقي بها وتسقي الناس ... وتلك الشيطانة واقفة لا يروعها ذلك الأمر العظيم** "[1] وأكمل وصفها على لسان ابنها بهذا الملفوظ: " **كان مولاها علي يتدين ولا يشرب الخمر. فقال لوالدي يوماً: والله يا أمير لا أستحل ما آكل من الديوان وما آكل من كسب بريكة، وهو الجاهل يظن أن ذلك السحت الحرام أحل من الديوان الذي هو مستأجر به. وكانت هذه الأمة لها ولد اسمه نصر رجل كبير وكيلاً في ضيعة للوالد– رحمه الله– وهو رجل يقال له: بقية بن الأصيفر. حدثني قال: دخلت في الليل البلد أريد الدخول إلى داري في شغل لي. فلما دنوت من البلد بين المقابر رأيت في ضوء القمر شخصاً ما هو آدمي ولا هو وحش فوقفت عليه وتهيبته. ثم قلت في نفسي: ما أنا بقية! ما هذا الخوف من واحد؟ فوضعت سيفي ودروقتي والحربة التي معي ومشيت قليلاً قليلاً وأنا أسمع لذلك الشخص زجلاً وصوتاً فلما قربت منه وثبت عليه وفي يدي دشني فقبضته، وإذا بها بريكة مكشوفة الرأس وقد نفشت شعرها وهي راكبة قصبة تصهل بين المقابر وتجول. قلت: ويحكي أي شيء تعملين**

(١) المرجع السابق ص: ٢٠٧.

في هذا الوقت ها هنا؟ قالت: أسحر، قلت: قبحك الله وقبح سحرك وصنعتك من بين الصنائع!"[1] .

واستخدم في النص الثاني طريقة التعيين أو إرجاء الكشف عن هوية الموصوف حتى آخر النص، وهذه الطريقة تقترن بالتشويق والمفاجأة، وتجعل المتلقي في حالة ترقب دائم، وهذا بعدٌ تأثيري يضاف إلى حجاجية الوصف.

إن هذه الطرائق الوصفية تظهر اهتماما بالجوانب الشكلية والفكرية، وكذلك أفعال الشخصية وأقوالها التي تعد جزءا مهما من وصفها، وهي تدل على مستواها الفكري وفهمها للحياة، وهذا الجانب الوصفي هو الأقوى إقناعا وتأثيرا؛ لأنه يصف أفعال الشخصية وأقوالها انطلاقا من معتقداتها –، فهذه الخطية الوصفية تظهر العلاقات الخطابية مبتدئة بالمقدمات تتبعها النتائج، ويمكن وصف تنامي المقدمات باعتبار سلالم ديكرو بـ: التصاعدي؛ إذ يبدأ من المقدمة الأضعف في الإثارة وينتقل إلى الأقوى حتى يصل إلى ذروة التشويق ولحظة الانكشاف:

دخلت البلد + دنوت من المقابر + رأيت مخلوقا غريبا+ تهيبت منه + زجرت نفسي عن الخوف +وضعت بعض أسلحتي + اقتربت منه + سمعت أصواتا غريبة ومخيفة + وتثبت عليه + أمسكت به + عرفته + حاورته + نهرته واحتقرت صنعته.

وبنية هذا النسق تظهر حجاجية هذه الطريقة الوصفية المعتدة بالمنطق؛ لأن هيئة الإنسان وأفعاله وأقواله وطرائق عيشه وأشكال تواصله تقوم – في

(١) **المرجع نفسه.**

غالبها – على جانب الفهم والفكر وفلسفة الحياة، فالزمركل – مـثلا– تعـرّى أخلاقيا عندما أخبرهم بأنه لص؛ ولذلك لم يأبه بانكشاف عورته فيما بعد.

ويتضح أيضا أن أسامة لا يلتزم الحياد، فإعجابـه بهـاتين الشخصـيتين ظاهرٌ، فالسياق – كما سلف – يرفع من قيمتهما رغم خرق كلّ منهما لإحـدى القيم المعتدِّ بها؛ لأن بغض الإفرنج ومساندة الجيش المسلم – على اختلاف – يرتق أي خرق للقيم اقترفاه.

ويخضع وصف الجماعات والشعوب عند أسامة للنسق ذاته؛ أي: الاهتمام بالأفكار والمفاهيم وتأثيرها على المظهر الخارجي من جهة، وطريقة الوصف المعتمدة على التعيين من جهة أخرى، ووصفه لعرب الجفر الذين مـر بهـم في طريقه إلى الشام في مهمة رسمية يبيّن ذلك، يقول عنهم :" **ورأيت بهـم من الضر أمراً عظيماً قد يبست جلودهم على عظامهم قلت: أيش أنتم؟ قالوا: نحن من بني أُبي. وبنو أبي فرقة من العرب من طـيء لا يـأكلون الميتـة ويقولون نحن خير العرب، ما فينا مجذوم ولا أبرص ولا زمـن ولا أعمـى. وإذا نزل بهم الضيف ذبحوا له وأطعموه من غير طعامهم. قلت: ما جاء بكم إلى ها هنا؟.... قلت: وكم لكم. قالوا: من عيد رمضان لنا ها هنا، ما رأينـا الزاد بأعيننا. قلت: فمن أين تعيشون؟ قالوا: من الرمة يعنون العظام الباليـه الملقاة ندقها ونعمل عليها الماء وورق القطف شجر بتلـك الأرض ونتقـوت به، قلت: فكلابكم وحميركم؟ قالوا: الكلاب نطعمهم من عيشنا، والحمير تأكل الحشيش. قلت: فلم لا دخلتم (كذا) إلى دمشق؟ قالوا: خفنـا الوبـاء. ولا وباء أعظم مما كانوا فيه! وكان ذلك بعد عيد الأضحى. فوقفت حتـى جـاء الجمال، وأعطيتهم من الزاد الذي كان معنا. وقطعت فوطة كانت على رأسـي أعطيتها للمرأتين، فكادت عقولهم تزول من فرحهم بالزاد وقلت: لا تقيموا ها**

هنا يسبوكم الإفرنج"[١]، في هذا المثال ارتبط الشكل الخارجي بمفاهيم القوم ومعتقداتهم المتعلقة بطرائق الغذاء؛ إذ كانت المعتقدات مقدمات نتيجتها شكلهم الخارجي الذي وصفه، وتقدمت النتيجة في هذا الشاهد على مقدماتها.

ومثله وصفه للإفرنج الذي يقوم على المقارنة بين من عاشروا المسلمين طويلا ومن هو حديث عهد ببلاده، يقول تبعا للطريقة الوصفية ذاتها: " **فمن جفاء أخلاقهم قبحهم الله، أنني إذا زرت بيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى، وفي جانبه مسجد صغير جعله الإفرنج كنيسة. فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الداوية وهم أصدقائي، يخلون لي ذلك المسجد الصغير، فدخلته يوماً فكبرت في الصلاة، فهجم علي واحد من الإفرنج مسكني ورد وجهي إلى الشرق وقال: كذا صل، فتبادر إليه قوم من الداوية أخذوه أخرجوه عني، وعدت أنا إلى الصلاة، فاغتفلهم (كذا) وعاد هجم علي ذلك بعينه ورد وجهي إلى الشرق وقال: كذا صل! فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه واعتذروا إلي وقالوا: هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج هذه الأيام، وما رأى من يصلي لغير الشرق. فقلت: حسبي من الصلاة! فخرجت وكنت أعجب من ذلك الشيطان وتغير وجهه وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة**"[٢].

يظهر من هذه الأمثلة مجتمعة أن الحوار ركن أساسي في المقاطع الوصفية عند أسامة، وهذا يؤكد أن الوصف في سيرته يهتم بالجانب الفكري، ويعده مفسرا لغيره من الصفات، ويشير أيضا إلى أن مقاطع السرد يرفد

(١) المرجع السابق ص: ٦٤.

(٢) المرجع السابق ص:٢٢٢.

بعضُها الآخر، وهذا يظهرُ أن الحوار كان سببا في فهم صفات الأفراد والجماعات وبخاصة الجانب الفكري – الباطني – الذي يرتبط بالجانب الشكلي –الظاهري– بحجة السببية التي تعد من أهم الحجج المؤسسة على بنية الواقع [1].

ويختلف وصف الإنسان في سيرة المؤيد عن سابقه؛ لأن نسق الوصف عنده يقوم على ركيزتين مهمتين، هما: الجانب العاطفي؛ إذ يهتم بما تتركه العاطفة وليس الفكر على الشكل الظاهري وما يصدر بسببها من أفعال أو أقوال، أما الركيزة الثانية فهي الوصف بالصور البلاغية، ومن ذلك وصفه لأهل السنة في الديلم عندما أمر المؤيدُ المؤذن بالأذان بـ: حي على خير العمل من أعلى أحد المساجد، يقول: " **فقامت ضجة بالمدينة شغلت الناس عن الصلاة وفاض الديلم عن الموضع فيضا حتى ضاقت المنافذ والمسالك بدوابهم ونجائبهم وغلمانهم** "[2]، حاول تحويل الصورة المجردة لعاطفة الغضب إلى صورة حسية يشبههم فيها – على سبيل الاستعارة – بالنهر الهائج الفائض المضطرب الذي يهدد الآخرين، والوصف يقوم على القياس المنطقي، وهذه بنيته:

بنيت المسجد وأقمت الأذان – حي على خير العمل – = م١

سمع أهل الديلم من السنة النداء= م٢

أثار حنقهم وغضبهم = ٣م

خرجوا غاضبين حتى فاضت بهم وبدوابهم الطرقات كما يفيض النهر ويهيج = ن.

---

(١) ينظر في نظرية الحجاج ص: ٢٥.

(٢) سيرة المؤيد ص: ٥٥.

وقريب منه وصفه لهم في موضع آخر عندما استدعى وزير الديلم بعض كبار أهل السنة وأسمعهم ما يسوؤهم فأثار ذلك شماتة المؤيد فوصفهم بقوله:" **فصدروا ثقالا بعد أن وردوا خفافا** "[(١)]، وليست الشماتة فقط هي العاطفة الدافعة لهذا الوصف، بل لعاطفة الاحتقار أيضا وجود في هذه الصورة البلاغية.

إنه يشبههم بالإبل، أو الحيوانات بعامة، وأظن أن لقوله تعالى: {فشاربون شرب الهيم} [(٢)]، أثراً في تشكل هذه الصورة، وبخاصة أن الله – سبحانه وتعالى – يتحدث عن الضالين أصحاب النار، وما أهل السنة – عند المؤيد – إلا ضالون! ويجمع هذا الوصف المعنيين معا، ويتضح أنه يشمل حالهم في الدنيا، وحالهم في الآخرة – استشرافا –؛ لأن الإيديولوجية التي يقوم عليها الوصف، بل خطابه كاملا إيديولوجية دينية، تهتم بوصف الحال في الدارين، ولأن الآخرة هي الأهم؛ فلا يرضي حقده وشماتته إلا أن يخسرها أهل السنة ! وهذا الوصف يتبع – لا ريب – وجهة خطابه ومعتقده، وهذا يظهر سبب استغلاله الصور المجازية التي يوجهها لتنجز أكثر من معنى في الآن ذاته.

ومن الاختلاف بين الرجلين في مواطن الوصف، أتحول إلى مواطن الاتفاق بينهم، وأهمها على الإطلاق استحضار الوصف القائم على القيم المطلقة، وهي – إلى حدّ ما – " قيم إنسانية عابرة للثقافات والأزمنة"[(٣)]، فالجمال قيمة مطلقة، وقول: فلانة أجمل النساء، يعدّ " أكثر فعالية من تفصيل هذا الجمال؛ لأن الإجمال استدعاء للمشترك الإنساني الذي يميل إليه الإنسان

(١) المرجع السابق: ١٠.

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٥٥.

(٣) الحجاج في قصص الأمثال ص: ٣٢٠.

ويقبله، بينما التفصيل يورط الخطاب في معايير خاصة لمرحلة زمنية معينة "[١] وهذا النوع من الوصف منتشر في سيرة أسامة ، وبخاصة في المقام المدحي، ومن أمثلة ذلك:" **وكان – رحمه الله – من أشجع الفرسان** "[٢]، و"**رجل شجاع ثقف** " [٣]، و"**رجل من أهل حلب فيه فضل وأدب**" [٤]، ومعظمها صفات معنوية، وهذه الكثرة تدل على أن القيم والأخلاق هي المقدمة – وصفا– على الجوانب الشكلية، وفي هذه السيرة بخاصة تتصدر الشجاعة جميع الصفات، فالمقام مقام حرب مع المحتل؛ ولذلك يكفي أن يصف بها ليرفع قيمة الموصوف، وقد قارن برلمان بين الشجاعة والكرم، ورفع موضع الكرم هرميا؛ لأن الحاجة إليه أكثر ديمومة من الحاجة إلى الشجاعة إلا في مقامات مخصوصة[٥]، والمقامات التي يحاكيها كتاب الاعتبار تندرج ضمن تلك المقامات.

وتقوم بعض الصفات على حجاجٍ توجهه الإيديولوجية المذهبية، وهذا النوع من الوصف يقوم على التنفير من الآخر – المخالف–، فالمؤيد ينقل مقول رسالته إلى أحد السلاطين عن أحد الوشاة بينهما، وفي هذا الوصف يصرح بصفة ويضمر أخرى، يقول: " **وضمنتها أيضا ذكر ما كان المارق المقدم ذكره ألقاه إليه ووسوس به صدره** "[٦]، صرّح بقوله: مارق، ونعلم ما

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) الاعتبار ص:٢٤٦.

(٣) المرجع السابق: ٢٧٥.

(٤) المرجع السابق:٢٣٧.

(٥) ينظر: في نظرية الحجاج ص: ٢٨.

(٦) سيرة المؤيد ص: ٤٨.

تختزله حمولتها الدلالية من المفاهيم، فأقبح ما ينعت به الإنسان هو خروجه من دينه، ويدعم ذلك بتحويله – بالاستعارة – إلى شيطان يوسوس في صدر السلطان، ويتعاضد الوصفان لحمل المروي له على المشاركة في صنع صورة متكاملة لهذا الموصوف؛ إذ يستحضر مقتضيات الأولى ويقيم لأجل الثانية علاقات ذهنية يخرج منها بوجه الشبه ويصنع مقدماتها ونتائجها، وهذا كله يجعل تأثره به أقوى ويصل بنفسه إلى تقبيح الموصوف، وهذا هو قياس الضمير.

ويصف ابن بلكين الوزير اليهودي بـ: " الخنزير" (١)، ومثله أسامة الذي ينعت بها الإفرنج كثيرا، ويستدعي هذا الوصف كل ما يتعلق بهذا المخلوق من مفاهيم يختزلها هذا الدال ويستحضرها – ذهنيا–، ونعلم أن تشبيه الإنسان بالحيوان لا يكون ذما في كل المقامات .

وأخيرا أرى أن هذا النوع من الوصف يقوم بعضه على الحجة البرقماتية التي تقيّم الأحداث بنتائجها السلبية أو الإيجابية، ولها تأثيرٌ مباشرٌ في توجيه السلوك (٢).

ب – الصيد وشمولية الوصف:

يهتم ابن منقذ بتنويع مقامات خطابه؛ ولذلك تحول عن مقام الحرب والاضطراب والكر والفر؛ إلى مقام اللهو – حسب مفهومه له –، فالوصف في هذا الباب يتعاضد مع بقية عناصر الخطاب الأخرى لتأسيس فضاء حجاجي معرفي يرجع إلى حجة التعريف (٣)– تقديم المعرفة والإخبار عن

---

(١) كتاب التبيان ص: ٦٩.

(٢) ينظر: الحجاج في قصص الأمثال ص: ١٧٧.

(٣) ينظر: عندما نتواصل نغير (م. س):١٣٦.

المعارف الجديدة –، ويندرج الوصف ضمن آليات هذه الحجة، وأراه في كتاب الاعتبار يقترب كثيرا من حجة تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة، وهذه الحجة يرجع تصنيفها – حسب برلمان – إلى الحجج المؤسسة لبنية الواقع؛ لأن فيها من التجارب التي تخص طرائق الصيد وآلاته وطرائده عند قوم أو أفراد بعينهم ما يضاف إلى المشترك المعرفي الإنساني عبر نقل أسامة لما رآه من ذلك. وعلى الرغم من التباين بين موصفات هذا المقام إلا أنها جميعا تقدم منظومة من الخبرات المنصهرة في مشاهد سردية تضخ معارف جديدة عبر قنوات تشويقية تأثيرية.

وأرى أن ما يميز هذا النوع من الوصف هو تفرد سيرة أسامة دون غيرها بهذا الفضاء ومكوناته، وهذا التفرد ذاته يعد بعدا حجاجيا لهذا المقام؛ إذ يقدم سجلا وصفيا متكاملا لهذا النشاط، فبين: وصف الإنسان ووصف الحيوان، ووصف أفعال الصيد وطرائقه؛ يقدم أسامة مشهدا وصفيا مفعما بالحركة يحتوي على أشكال من التواصل بين مخلوقات مختلفة.

ومن أهم الأوصاف التي يعرّف بها أسامة هي الأوصاف التي يطلقها المجتمع على من يمتهن تدريب القانصة وغيرها من الحيوانات، و"ذكر مهنة الشخصية والحديث عنها ينهض بوظيفة إقناعية تتمثل في إنشاء سلطة.. وهي قوة يحتاجها الخطاب القصصي لإقناع المخاطب بأقوال الشخصية والقبول بدورها، وفهم وظيفتها" [(١)]، ومن ذلك:"**والبازيار غنائم يقول: ما في هذه البزاة كلها مثل هذا الباز اليحشور ما يترك شيئاً إلا يصيده ونحن لا نصدقه. ثم أصلح ذلك الباز فكان كما ظن فيه من أفره البزاة وأطيرها وأشطرها، وقرنص عندنا وخرج من القرناص أجود مما كان. وعمر ذلك الباز وفرض عندنا ثلاثة عشر سنة:**"[(٢)]

---

(١) الحجاج في قصص الأمثال ص ٣٢٢.

(٢) الاعتبار ص: ٣٠٩.

ومن تلك الأوصاف: بازيار[١]، والباز دارية[٢]، والزِمام[٣]، والكلابزية[٤]، والصقار والفهاد[٥] والوشاقية[٦]، وخلف هذا السجل الوصفي يثوي حجاج يقنع بصفات تميز هذا المجتمع من قبيل الدقة والتنظيم، بل تميز أفراده – أيضا– بتواصل ينأى عن الغموض ويحتفي بالإيجاز، ونعلم أن الوضوح هو أول مستويات التواصل والإقناع، وخلف هذه الأوصاف السابقة تظهر بنية الوحدة اللغوية الوصفية الواحدة التي تختزل اسم المدرِّب ونوع الحيوان المدرَّب، ثم تظهر في مستوى آخر علاقة التأثر والتأثير بالشعوب الأخرى، فكلمة البازدارية هي كلمة فارسية – كما ذكر المحقق –، ومثلها الكلابزية، وينبني على ذلك انتظار المتلقي لمزيد من التلاقح المعرفي في هذا المقام بين الشعوب والتفاعل المنطوي على تبادل خبرات، وسيكون تأثير الإفرنج هو المنتظر بدءا، وعلى الرغم من ذلك لا يشير إليه أسامة إلا في موضع واحد[٧]، ولا يخفى أن المقام مقام تسلية ولهو وأنس، ولا يتوافق مع ذكر العدو، ولهذا الإحجام المقصود ما يبرره تداوليا، فمبدأ الملاءمة – المناسبة – يرفع من قيمة هذا الإجراء، وله – أيضا– في الحجاج ما يرفده، ويظهر ذلك في حجة الصمت، والإعراض عن ذكر ما له تأثير سلبي على عاطفة المروي له

(١) هو مدرب البزاة، والمتولي أمرها. ينظر: الاعتبار ص: ٢٩٦ هـ(٤).

(٢) هو المدرب بالفارسية. ينظر: المرجع نفسه.

(٣) هو قائد القانصين. ينظر:المرجع السابق ص: ٢٩٩.

(٤) مدربو الكلاب. ينظر: المرجع السابق ص ٣٠٦ هـ(٧).

(٥) هما على التوالي: مدرب الصقور، ومدرب الفهود . ينظر: المرجع نفسه.

(٦) هم: حملة المشاعل أثناء الصيد. ينظر: المرجع السابق هـ(٦).

(٧) ينظر المرجع السابق ص:٣٠٠.

في سياق، ومفاده: الامتناع عن وصفهم، ونعلم أن الصمت يدخل ضمن مستويات الحجاج.

ومن الموصوفات في هذا المقام، والتي احتلت في هذا الجانب مساحة لا بأس بها مقارنة بالفقر الوصفي الذي عانى منه وصف الإنسان؛ وصف حيوانات الصيد وطرائقه، وتدريب البزاة والصقور والفهود وغيرها من القوانص، ثم بعض الإشارات إلى تقاليد الصيد، ومن أمثلة ذلك قوله: "**الشواهين الكوهية**"(١)، و"**باز مقرنص بيت** "(٢)، ويصف بعض الآلات الأخرى؛ كقوله: "**نشابة كشماء** " (٣)،، وقد يأخذ الوصف مساحة أكبر من هذه الأوصاف المختصرة، واستأثرت البزاة بجزء كبير من ذلك؛ لكونها الصائد الأشهر، فجمع لوصفها حججا تقوم على الحس المشترك في مواضع وعلى الغريب والنادر والعجيب في مواضع أخرى؛ كقوله عن المشترك المعرفي في تقاليد الوصف والصيد:" **بازٌ فرخ مثل العقاب** " (٤)، و"**فإنها من الطيران على سرعة عجيبة** " (٥)، أمّا الصفات المتعلقة بما يثير الغرابة فلها قيمتها الإقناعية التي تثير الدهشة وتؤسس لطرائق جديدة لم تكن معهودة أو مشهورة، وهذا الوصف – في رأيي – أقوى حجاجا ممّا ينهض على

---

(١) المرجع السابق ص:: ٢٩٦. والكوهية: هي الجبلية. ينظر: المرجع نفسه هـ(١).

(٢) المرجع السابق ص: ٢٩٩،مقرنص بيت: أي حبس في البيت بعد سقوط ريشة حتى ينبت ريشه الجديد. ينظر: (م. ن) هـ (٢).

(٣) المرجع السابق: ٣٠٢. ويقصد بها: النشابة التي لا ريش له. ينظر: المرجع نفسه) هـ(٢)، والنشاب: السهم. ينظر: لسان العرب (ن ش ب).

(٤) المرجع السابق ص: ٣٠٩.

(٥) المرجع السابق ص: ٢٩٦.

المشترك المعرفي، وهو ينهض حجاجيا على حجة التعريف أولا، والحجج المؤسسة لبنية الواقع ثانيا، ومن هذا وصفه لباز والده في بعض حالاته: "**فلا يطلب شيئا من الطيور ولا يثب عليها، ولا كأنها مما جرت عادته بصيدها** " (١)، وكذلك:" **وإن كان يريد أن يستحم خضخض منسره بالماء، فيدري أنه يريد أن يستحم، فيأمر بإحضار جفنة كبيرة فيها ماء فيقدمه إليه فيطير (و) ينزل في وسطها...ثم يوضع له فرو مطوي فينزل إليه ينام عليه... فلا يزال بيننا على ذلك الفرو نائما حتى يتهور الليل، ويريد الوالد (أن)يدخل إلى دار الحرم، فيقول لأحدنا: احمله، فيُحمل كما هو نائم على الفرو حتى يحط إلى جانب فراش الوالد** " (٢)، وقريب منه حديث طويل عن فهدة والده، يقول:" **وكانت تركب ولا تصيد وكانت تصرع كما يصرع المصاب بعقله وتُزبد ويقدم إليها الخشف فلا تطلبه ولا تريده... وبقيت كذلك مدة طويلة**" ، **ومثله هذا الملفوظ:" وحمل الغلمان معهم من الحمام ما ظنوا أنه يكفي البزاة التي معهم، فتغير عليهم البحر، وتعوقوا حتى فرغ ما معهم من طُعم البزاة فاضطروا إلى أن صاروا يطعمون البزاة لحم السمك، فأثر ذلك في أجنحتها: صار ريشها ينكسر وينقصِف، فلما وصلوا بها إلى شيزر ... وفي خدمة الوالد بازيار طويل اليد، يقال له: غنائم. فوصل أجنحتها واصطاد بها وقرنص بعضها عنده**"(٣) .

ومثله وصف الطرائد القائم على التشبيه وتحديد اللون والحجم: " **وفي تلك البلاد طيور يسمونها البُج مثل النحام يصيدونها أيضا، وطيور الماء**

(١) المرجع السابق: ٣١١.

(٢) المرجع السابق ص:٣١٠.

(٣) المرجع السابق ص: ٣٠٤.

في مقطعات النيل سهلة الصيد... بل في تلك البلاد بقر بني إسرائيل، وهي بقر صفر قرونها مثل قرون البقر، وهي أصغر من البقر تعدو عدوا عظيما"(١)

ويهتم ابن منقذ بأن يؤطر ما يذكر من غرائب الصيد بما يناسب وجهة خطابه في سياقه العام، فنجد أن لبعض الأطروحات الاعتبارية امتدادا في هذا المقام، إلا أن فواعلها هاهنا تختلف باختلاف هذا الفضاء، فالأطروحة الأغلب التي هيمنت على سياق الكتاب بأكمله – ارتباط الموت بالأجل لا بالخطر – تعود لتظهر مرة أخرى في هذا المقام التلفظي وعبر هذا الملفوظ: " **وشهدت الصيد مع الملك العادل نور الدين... وقد جلوا له أرنبا فضربها بنشابة كشماء وقامت وسبقت إلى جحر دخلته فركضنا خلفها ووقف عليها نور الدين وناولني رجلها قد قطعتها النشابة من فوق العرقوب وشقت جوفها قرنة النصلة، فوقع منها بيت الولد...وقلت للذي معه بيت الأولاد، وفيه خرنقان: شقه واطمرهم بالتراب، ففعل، فتحركوا وعاشوا** "(٢).

ولم يهمل أسامة في هذا المقام وطرائق صيد الجوارح وترويضها أو ذكر أعراف الصيد وطقوسه مطبقا قانون الشمول الحجاجي الذي يلم بكل جزئياته، وهذا الشمول منهج التزم به فصار ضمن المنتظر عند كل موضوع يتطرق إليه، وأكتفي بهذا المثال الذي يظهر تدريب الباز " **يعمل له بيتا بالحجارة على قدر خلقته ويغطيه بعيدان ويسترها بقش وحشيش ويجعل نافذة. ويأخذ طير حمام ويجمع رجليه على قضيب ويشدها إليه ويخرجه من**

---

(١) المرجع السابق ص: ٢٩٩ والنحام: من طيور الماء مثل الأوز. ينظر: المرجع نفسه: ٣٠٠هـ.

(٢) المرجع السابق ص: ٣٠٢. الجرتق ولد الأرنب. ينظر: المرجع نفسه هـ(٨).

تلك الن افذة فيحرك العود فيتحرك الطير فيراه الباز ينقلب عليه فيأخذه، فإذا أحس به الصياد جذب القضيب إلى النافذة ، ومدّ يده قبض رجلي الباز وهو قابض لطير الحمام، وأنزله إليه وخيط عينيه " [(١)]، بُني الوصف في هذا الشاهد على تتابع أفعال لغوية بسيطة متصاعدة حتى النتيجة المرادة: صيد الباز؛ كالتالي:

يعمل بيتا بالحجارة++ يغطيه بعيدان ++ويفتح نافذة + يجمع رجلي الطائر بقضيب+ يخرجه من النافذة +يحرك الطير + فيراه الباز ويحاول أخذه = يمسك الصياد الباز.

ومن الشمول أيضا ذكر تقاليد الوصف، ومن هذه التقاليد ما يتعلق بمقامات القوم وما يتصل بمهمات كل طبقة بما يقتضيه الحس المشترك، يقول موضحا ذلك:" **فقال لنجم الدين أبي طالب بن علي كرد رحمه الله قل لفلان – يعنيني – يأخذ هذا الباز يلعب به. فقال لي فقلت: ما أحسن له. فقال نور الدين: أنتم بالصيد ما كنتم تزالون، ما تحسن تصلح للباز؟ قلتما: كنا نصلحها نحن كان لنا بازيارية وغلمان يصلحونها ويتصيدون بها قدامنا. وما أخذت الباز.**"[(٢)].

ومن ذلك أيضا محاولته التوسع في الفضاء المكاني ومدّ هذه التجربة على أماكن مختلفة ومع شخصيات سياسية مختلفة، وهي متوالية: في مصر مع الحافظ لدين الله، وفي عكا مع الأمير معين الدين بن أنر، وفي كيفا مع الأمير فخر الدين أرسلان ، وفي حماة وحلب مع نور الدين الشهيد، وفي شيزر مع والده.

---

(١) المرجع السابق: ٣٠٥.

(٢)المرجع السابق ص: ٣٠٣.

ب- وصف الحيوان والمكان في الاعتبار:

بعد تتبع هذا الفضاء وعرض بعض مناويل الحجاج الوصفي، يبقى فضاء آخر في سيرة أسامة لا يقل أهمية عن سابقه، وإن كان متشعبا وممتدا امتدادا يتداخل فيه مع أفضية متعددة ويشارك في تأسيس مجموعة من المعارف، يقدمها بمستويات متعددة، بعضها يأخذ النسق البيداغوجي المباشر، الذي يندرج -غالبا- ضمن حجة التعريف .

ويأتي هذا الوصف ضمن أطروحات الخطاب العامة، ويأخذ حيزا في تكوينها؛ إذ يكون ضمن ضميمة من المقدمات الأخرى للوصول إلى ما يراد من النتائج أو إنتاج دلالة ما، والقول نفسه يقال عن وصف المكان، ومن ذلك قوله واصفا أحد حصون الإفرنج:" **فوقع لي أن أدخل في النقب أبصره فنزلت في الخندق، والنشاب والحجار مثل المطر علينا ودخلت النقب فرأيت حكمة عظيمة قد نقبوا من الخندق إلى الباشورة وأقاموا في جوانب النقب قائمتين وعليهما عرضية تمنع من تهدم ما فوقها ونظموا النقب بالأخشاب كذلك إلى أساس الباشورة وعلقوه وبلغوا أساس البرج وحملوه على الأخشاب ويخرجون نقارة الحجار أولاً فأولاً. وأرض النقب من النقش قد صارت طيناً، فرأيته وخرجت ولم يعرفني الخرسانية، ولو عرفوني ما تركوني أخرج إلا بغرامة كثيرة لهم. وشرعوا في تقطيع الخشب اليابس وحشوا النقب بذلك الخشب وأصبحوا طرحوا فيه النار** " [(١)]،ومثله قوله في وصفه لوادي حلبون: " **وسرنا إليهم فلحقناهم في وادي حلبون وهو واد ضيق لعل ما بين الجبلين خمسه أذرع، والجبال من جانبيه وعرة رفيعة وطريقه ضيقة إنما يمشي فيها فارس، وهم في سبعين رجلا بالقسي والنشاب. فلما وصلناهم كان غلماننا خلفنا بسلاحنا لا يصلون إلينا وأولئك قوم منهم في الوادي ومنهم قوم في**

(١) المرجع السابق ص: ١٤٦.

سفح الجبل، فظننت أن الذين في الوادي من أصحابنا فلاحي الضياع قد فزعوا خلفهم والذين في الجبل هم الحرامية فجذبت سيفي وحملت على الذين في السفح. فلما طلع الحصان في ذلك الوعر إلا بآخر روحه. فلما صرت إليهم وحصاني قد وقف ما بقي يندفع استوفى واحد منهم نشبته في فوقه ليضربني، فصحت عليه وتهددت فمسك يده عني، وعدت أنزلت الحصان وما أصدق أخلص منهم"[(١)]، وأيضا قوله عن أحد الحصون:" **ومثل ذلك جرى في حصن الخربة، كانت لصلاح الدين محمد بن أيوب الغسياني رحمه الله وفيها الحاجب عيسى واليها، وهو حصن منيع على صخرة مرتفعة من جميع جوانبه يطلع إليه بسلم خشب ثم يرفع السلم فلا يبقى إليها طريق**" [(٢)]، وللوصف اتجاهاته الحجاجية، فقوله: "فرأيت حكمة عظيمة " يظهر أن ما رآه داخل في العبر التي تجلّت له في حياته ووصف النقب – في الأول – ليس استطرادا أو صف حيز ساكن يحتوي الأحداث وحسب، ومثله المثال الثاني والثالث – مع اختلاف الأحداث –، فالمكان وعبر هذا الوصف هو مشارك في الأحداث، ووصفه يؤسس لتأثيريته التي تسير وفاق الوجهة الحجاجية للأطروحة في السياق الخاص، بل إنه أحد فواعل الحكاية وتحديدا يدخل ضمن العناصر المكونة للمعارض – حسب غريماس–الذي يحتاج إلى قوة مضاعفة لتخطيه؛ حتى يكتمل المسار الدلالي للأطروحة: قوة عزائم الرجال وهممهم.

(١) المرجع السابق ص: ٢٤٧.

(٢) المرجع السابق ص: ١٥٣.

الخاتمة

أظهر البحث أن الوصف في هذه المقاربة لا يندّ عن كونه أداة حاجية تظهر طرائق أصحاب هذا الخطاب في كتابة سيرهم، وتقنياتهم الحجاجية أو لنقل: حيلهم في الخروج من مأزق الحديث عن الذات وتعظيم شأنها، وهذه التقنيات تشمل جانب الإضمار عندما يدخل وصف الذات في المديح، ويصرح به عندما يبتعد عن هذا المزلق الذي يتعارض مع أعراف المجتمع التي تنبذ التشدق بمدح الذات. ولا نعدم عنصر التشويق وتأسيس الواقع عبر الحالات الخاصة(١) الماثلة في طرائق الصيد والتعامل مع بعض القوانص بشكل يثير الدهشة والغرابة، وهذا يجعل المتلقي يتقلب بين مقدمات الخطاب المتعددة منتظرا النتيجة الحجاجية، وهذا الانتظار أو هذه الدهشة تسمى – حسب سيرل – الفعل التاثيري(٢)، الذي نفترض وقوعه بناء على تلك المقدمات، ولكن افتراض هيئته يصعب على الافتراض؛ لاختلاف التلقي.

(١) ينظر: الحجاج في الشعر العربي ص: ٢٤٣.

(٢) البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني ص: ٥٧.

مصادر البحث

١-الاعتبار، أسامة بن منقذ، تح: عبد الكريم الأشتر، المكتب الإسلامي، بيروت لبنان، ط٢، ٢٠٠٣ م.

٢-البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، قدور نعمان، عالم الكتب، الأردن، ط٢٠١٢،١م

٣- تبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيرى في غرناطة، عبد الله بن بلكين، تح: علي عمر، مكتبة الثقافة الديني، مصر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م

٤- التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، عبد الرحمن بن خلدون، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، سوسة، د. ط، د. ت

٥- الحجاج في الشعر العربي (بنيته وأساليبه)، سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، الأردن، إربد، ط٢، ٢٠١١م

٦- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، محمد بن عبد الرحمن السخاوي، دار الجيل، بيروت، لبنان، د- ط، د- ت ١٢.

٧- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، دار الثقافة ، بيروت، لبنان

٨- البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، قدور نعمان، عالم الكتب، الأردن، ط٢٠١٢،١م. ٦٨.

٩-الحجاج في قصص الأمثال (مقاربة سردية تداولية)، دار كنوز المعرفة، الأردن، عمان، ط١، ٢٠١٦ م ١٠٧.

١٠- السيرة الذاتية (الميثاق والتاريخ الأدبي)، فيليب لوجون، تر: عمر الحلي، المركز الثقافي العربي، لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٤م

١١-علم السرد (المحتوى والخطاب والدلالة)، الصادق قسومة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ،السعودية، الرياض، ٢٠٠٩م
١٢- عندما نتواصل نغير (مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج)، عبد السلام عشير، أفريقيا الشرق، المغرب، الدار البيضاء، ٢٠٠٦م.
١٣- في نظرية الحجاج (دراسات وتطبيقات)، عبد الله صولة، مسكيلياني للنشر، تونس، ط١، ٢٠١١م.
١٤-النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، عمارة اليمني، مكتبة مدبولي، مصر، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.
١٥- في الوصفي، فيليب هامون، تر: سعاد التريكي، بيت الحكمة ، تونس، تونس، د- ط، ٢٠٠٣م: ٢١. ١٦٧.
١٦ الوصف في النص السردي بين النظرية والإجراء، نجيب العمامي، دار محمد علي للنشر، تونس، صفاقس، ط١، ٢٠١٠م.